الأخلاق وسؤال الإنسان المعاصر عند اريك فروم

Ethics and the Question of Modern Man by Eric From

هشام مصباح[1]

جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة2 الجزائر

تاريخ الإرسال :2021-04-17 تاريخ القبول :2021-12-17 تاريخ النشر :25-12-2021

الملخص: يعتبر الفيلسوف الألماني" اريك فروم" من بين أهم المفكرين في القرن العشرين نتيجة الاسهامات الكبيرة التي قدمها في مختلف مجالات التفكير الإنساني حيث جمع بين التحليل النفسي والدراسات الفلسفية النقدية في تشخيص حال العالم المعاصر والقضايا الحاسمة التي أصبحت تتحكم في جميع مجالاته الاجتماعية، السياسية، الاقتصادية وغيرها من المجالات الأخرى ذات العلاقة المباشرة بالإنسان ومصيره، وعليه لطالما اعتبر سؤال الإنسان من القضايا المحورية والأساسية في الوقت ذاته التي شغلتْ بال المفكرين والفلاسفة والباحثين في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية نتيجة الأبعاد الرئيسية التي يطرحها هذا المفهوم على الصعيد العالمي في ظل الرهانات الجديدة التي يعيشها العالم اليوم.

الكلمات المفتاحية: الإنسان، الأخلاق، العالم المعاصر، القيم، اريك فروم.

Abstract: The German philosopher "Eric Fromm" is considered among the most important thinkers in the twentieth century, as a result of the great contributions he made in the various fields of human thinking, as he combined psychoanalysis and critical philosophical studies in diagnosing the state of the contemporary world and the critical issues that have come to control all its social and political fields. Economic, economic and other fields directly related to man and his fate, and accordingly the human question has always been considered one of the central and fundamental issues at the same time that has occupied the minds of thinkers, philosophers and researchers in the field of human and social sciences as a result of the main dimensions that this concept raises at the global level in light of the new stakes that The world lives today.

.**Keywords**: Human, Ethics, Contemporary World, Values, Eric Fromm

[1]- دكتور فلسفة جامعة قسنطينة2.

1- مقدمة: لقد شَكّلَ السؤال الاخلاقي حضورا قويا في الفلسفة الغربية المعاصرة على وجه الخصوص نتيجة تعدد المشكلات الإنسانية وشدة تعقيدها من جهة وتداخلها مع عديد الحقول المعرفية من جهة أخرى، دون أن يعني هذا غياب فلسفة الأخلاق وسؤال التقويم الأخلاقي ومعيار القيم الإنسانية من كل فترات الإنسان وتطوره، إنه سؤال تاريخي ملازم ومرافق لحضور الإنسان وعلاقاته مع الأخرين من حوله حيث ينفد إلى أعماق الذات الإنسانية للكشف عن تجربة الفعل الأصيل النابع من سلطة الضمير الإلزامية التي تبحث دائما عن الكيفية المثلى لتوجيه السلوك الإنساني نحو ما يجب فعله اقتضاء بمعيار الخير والحسن والابتعاد عن كل فعل لا يصلح للتعبير عن ماهية الإنسان وفطرته الخيّرة التي تأبى دائما الشر والقبح رغم وجود تناقض كبير بين طبيعة الإنسان وأفعاله في الواقع ضمن تجربة الحياة المعيشة التي تكشف عن تجذر الشرور والمآسي التي سببها الأول والأخير الإنسان فهو المشكلة دائما، نتيجة هذه التداخلات المعرفية حول سؤال الأخلاق وراهنتيه في كل حقبة تاريخية تعددت المقاربات الفلسفية والاجتماعية حوله لتزيد في غنى بانوراما الفعل الإنساني الذي أصبح يعيش حالات اغتراب شبه كلي عن ذاته وعن عالمه.

فالبحث في فلسفة الأخلاق من دون شك هو بحث عن ماهية الإنسان ومدى إدراكه لحقيقة وجوده في العالم، ومن ثمة العودة إلى السؤال **الكانطي** الشهير الذي شكلَ منعرجاً حاسما في فلسفة العصر الحديث وعصر التنوير، وهو ما الذي يجب عليَّا أنْ أفعلهُ؟ تتويجاً للأسئلة الثلاثة التي طرحها كانط، والتي تقود إلى السؤال المحوري من هو الإنسان؟، من هذا المنطلق يحاول **فروم** إعادة طرق باب الأخلاق في الفترة المعاصرة للتساؤل عن طبيعة السؤال الأخلاقي والمآخذْ الكبرى التي شكلتْ ملامح القرن العشرين وبعدها القرن الحادي والعشرين، فما هي أسس الفلسفة الأخلاقية الفرومية؟ وكيف استفاد **فروم** من مميزات القرن العشرين في إعادة التفكير معه وضده في الوقت ذاته؟.

2: قراءة في فلسفة الأخلاق الإنسانية الإنسان والبحث عن معنى لوجوده: ضمن المحاضرات القيِّمة التي صنعتها قريحة **فروم** المعبِرة عن تشخيص واقعي نقدي لطبيعة المجتمع الغربي المعاصر مشيرا إلى الأشياء التي رفضها فيه والتي نشرها تحت عنوان "ما لا أحبه في المجتمع المعاصر سنة 1972"، يشير **فروم** إلى طبيعة هذا المجتمع الصناعي سواء في شقه الرأسمالي أو السوفييتي فكلاهما وجهان لعملة واحدة ألا وهي تمجيد القوة والسعي نحو المزيد من المناطق لضمها والاستحواذ على خيراتها، فدائما معادلة السوق وفاتورة الأرباح تحسب أولا وقبل كل شيء، الجانب الإنساني وسؤال القيم والأخلاق والعدالة تأتي من بعد، المهم كيف يتم المحافظة على معادلة البقاء في الصفوف الأمامية لأن كلامها يدرك جيدا أن البقاء في المقدمة ستلزم الكثير من التضحيات التي لا تهم وسيلتها، فالغاية تبرر الوسيلة في هذا المكان، **يقول** " **أولا أود أن أعبر عن كرهي لحقيقة أن كل شيء وكل شخص تقريبا للبيع، ليس فقط السلع والخدمات، بل الأفكار، الفن، الكتب، الأشخاص، القناعات، الشعور، الابتسامة كلها تحولت إلى سلع، وكذلك الإنسان كله بكل جوارحه وإمكانياته**(اريك فروم،، 2003، صفحة 40)" فمعيار الوجود الإنساني لم يعدْ كما كان يحمل قيمته في ذاته بتعبير **كانط** بل معيار السوق هو الأساس، فالكل

قابل للتثمين والمبادلة والمقايضة، بعبارة أكثر وضوحا قبل الأشياء تقبل معيار السلعة والسوق حتى الإنسان، وبالتالي الانعكاسات التي ستترتب عن هذا من فقدان الثقة في كل شيء، فالنزعة التشاؤمية بتعبير **شوبنهاور** نجدها حاضرة عند فروم في حديثه عن مميزات المجتمع المعاصر

كما يشير أيضا إلى فكرة فقدان الهوية لدى الجيل الجديد من الشباب في هذه الفترة من تطور العالم الغربي على وجه الخصوص وما نتج عنها من تغيّر في معنى الحياة في حد ذاته، لم يبقى المعنى نفسه الذي كان سائدا من قبل، وهنا يحضر وجه **فروم** المحلل النفساني في قراءته لطبيعة المجتمع والرد على القراءات الاخرى المقدمة حوله من زاوية نقدية نلمسها حاضرة بقوة في تحديد خصائص هذا المجتمع الذي ساد فيه الضجر والقلق الوجودي والبحث عن البهجة والتسلية التي أصبحت كلها ذات طابع صناعي لا يختلف عن المجال الاقتصادي، وهي الفكرة التي يعبرُ عنها بتغليب مبدأ الامتلاك على مبدأ الوجود " **يريدون أن يملكوا الكثير ويستخدموا الكثير، بدلا من أن يكونوا الكثير**(اريك فروم،، 2003، صفحة 46)"لا نريد هنا العودة إلى المسار التاريخي الذي جسده التفكير الأخلاقي عبر حقبه القديمة وما حمله من عبئ أخلاقي رصين نقرأ تفاصيله في الحضارات الشرقية القديمة الصينية والهندية وغيرها، ثم بعدها في الفلسفة الإغريقية الرومانية واليونانية، وإن ما نريد التأكيد عليه في هذا المجال هو شرح تفاصيل الفلسفة الأخلاقية في الحقبة المعاصرة وبالخصوص كما فهمها **إريك فروم**، وحاول تأصيلها في مؤلفه "**الإنسان من أجل ذاته بحث في سيكولوجية الأخلاق**"، فالبعد النفساني دائما حاضر في قراءات **فروم** الفلسفية.

بالرجوع إلى سؤال التنوير الذي فصل فيه **كانط** بكلمتين فقط ضمن مقال أجاب فيه عن **ما التنوير؟** فكانت ولادة عبارته المشهورة" **تجرأ واستعمل عقلك أنت**" ومن ثمة كانت تلك اللحظة بمثابة الانتصار والاستقلالية للعقل في التفكير والتأمل في مشكلات الواقع الراهنية في كل حقبة زمنية، ليصبح العقل السلطة العليا التي حطمت قيود الوصاية والجهل، لكن هذا العقل الفلسفي لم يكنْ وحيداً في رحلة التحرير كما قال **زيجمونتباومان** بل رافقته العديد من التحولات من أهمها علمنة فكرة الإله الرقيب ليعوضه بسلطة الإنسان الحديث، هو الرقيب الذي لا بد أن يخضع العالم لسلطته ونظامه(حجاج أبو جبر، 2018، صفحة 8)، ليتم الإعلان عن مرحلة جديدة للسيطرة على العالم هي سيطرة الإنسان والعلم مع إبعاد فكرة العناية الإلهية التي تم تعويضها بفكرة **العقل الإداري**، يقول حجاج ابو جبر" **لقد تَبَيْنَ أنَّ لعبة تحرير الإنسان كانت في واقع الأمر لعبة السيطرة**"(حجاج أبو جبر، 2018، صفحة 8)، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على توجيه نقد لاذع للتنوير الأوروبي وفشله في تحقيق حلم الإنسان الغربي على الأقل من جانب التطبيق الفعلي له في أرض الواقع، أما كمشروع وكأفكار فإنه يحمل نُبْلاً في ذاته ذو طابع مثالي " فقد اتضح أن فردوس التحرر الموعود هو سجن مثالي كبير تتوغل فيه علاقات السلطة بكل أشكالها وأصنافها(حجاج أبو جبر، 2018، صفحة 8)

3: الإنسان بين العلم والأخلاق قراءة في تخوم العلاقة بينهما عند اريك فروم: إن الحديث عن مشكلة القيم الأخلاقية في علاقتها بالعلم وما يرتبط به من انجازات في مختلف المجالات الإنسانية يقود مباشرة إلى تتبع المسار

العلمي وافرازاته، ومن ثمة مدى أثره على الإنسان باعتبار أن البحث في الأخلاق هو بحث في الإنسان وفي المعايير التي تضبط أفعاله وتقومها خصوصا أمام النزعات المتعددة المفسرة للنظرية الأخلاقية بين المطلقة والنسبوية وادعاء كل منهما أنها الصائبة.

إن الحديث عن فلسفة الأخلاق اليوم قد يبدو ناقصا ما لم يتم التطرق إلى المطلقية والنسبوية في الحكم الأخلاقي نتيجة الأفكار التي حملتها كل منهما ومن ثمة النتائج المترتبة عن كلاهما، فماذا تعني كل منها؟

ترى المطلقية في الأخلاق أن القيم تكون مطلقة إذا كانت صحيحة لا تقبل التغيير ثابتة الأمر الذي يجعلها تكتسي طابع القطعية والإلزام، دون أن يعني هذا أنها الأخلاق الصحيحة التي يجب على الإنسانية التقيد والالتزام بها، فالواقع قد يفند الكثير من الحقائق النظرية عندما تنزل إلى واقعها التجريبي، والأمر نفسه نجده مع هذا التوجه الأخلاقي حيث اتهمت بأنها السبب المباشر لكل مأسي الإنسانية والكوارث التي حلت بالإنسان المعاصر والحروب التدميرية وغيرها من أساليب العنف العالمي، ومن أبرز الأمثلة عليها نجد: **الثقافة الإمبريالية والثقافة الأصولية**، فماذا تعني كل منهما؟

تشير الثقافة الإمبريالية إلى تفوق عنصر بشري على بقية البشر أو تفوق شعب معيّنْ على البقية بمعنى عدم قدرة بقية البشر على الوصول إلى نفس مرتبتها بل تبقى ذات طابع متعالي عليها(اريك فروم، 2003، صفحة 6)، الأمر الذي يمنحها الأحقية في السيطرة عليها وأخذ ثرواتها وخيراتها، فهي ايديولوجيا جديدة تقوم على إخضاع الشعوب الأخرى واستغلالها من خلال تعريفها بجانب واحد فقط ألا وهو الجانب الثقافي ومن ثمة وصفها بجميع الأوصاف الدنيئة التي تبيح لها حق الاستغلال والسيطرة عليها، فتملك بذلك الحجة عليها مثل ما نشاهده في واقعنا اليوم التدخل في العديد من الدول بتهم واهية من قبيل الإرهاب، حماية حقوق الإنسان، المصير الإنساني، وغيرها من الشعارات.

أما النزعة النسبوية في الأخلاق بلها معنى معاير لأننا قد نجد بعض الاختلافات عند الحديث عن النسبية في المجال العلمي مثلاً في مقابل النسبوية في المجال الأخلاقي التي تشيرُ إلى الاختلاف في الثقافات والمبادئ التي تتأسس عليها **القيمالأخلاقية**، فلا وجود لمعايير صحيحة ثابتة وهو ما يبررُ الفروقات في الأنظمة القيمية بين البشر، وأن قيم الفرد مستسقاة من الثقافة التي ينتمي إليها(اريك فروم، 2003، صفحة 9)، ومن ثمة تكون هذه الأخرى حاملة للعديد من التناقضات كونها منغلقة ضمن ثقافات محددة تتنافي مع التعدد الثقافي وغيرها من القيم ذات الطابع الإنساني المشترك خصوصاً إذا تعلق الأمر بالقضايا المصيرية التي تمسْ البشرية على السواء، وهو الأمر الذي جعل **فروم** يرفض النزعتين معا، ويسعى إلى تأسيس توجه جديد في التعامل مع طبيعة الأفعال الإنسانية والقيم الأخلاقية بمراعاة جميع الأبعاد المميزة للذات الإنسانية، وهي الشمولية النسبية التي تبحث عن معايير شاملة لجميع الإنسانية منفتحة على جميع التيارات الفلسفية والقيم الإنسانية، وكأنها تشبه إلى حد بعيد

مشروع حقوق الإنسان في بعده النظري لأن جانبه الواقعي المعيْشْ يحمل الكثير من التناقضات، أو فكرة **السلام الدائم** عند كانط، وكل المشاريع التي تبحث عن تأسيس ذو طابع كوني شمولي لكل ما يهم الإنسان، حيث يُعَرِفُهَا فروم" **فلسفة الأخلاق الشاملة هي معايير السلوك التي هدفها نمو الإنسان وتفتحه**"(اريك فروم، 2003، صفحة 15)فهي معايير لا تبحث أن تكون مطلقة، بل أن تكون الأفضل وفي ذلك فرق كبير بين المصطلحين، فالشمولية الأخلاقية اهتمام بالحوار بين الثقافات وفتح أفق التشارك الإنساني والتقاطع الثقافي والهوياتي بين مختلف الثقافات، وكأنها تشبه إلى حد بعيد عقلانية التواصل عند **هابرماس** الذي حاول من خلالها تجاوز العقلانية الأذاتية المنتجة **للتشيؤ** والاغتراب والمادية وفشل مرحلة الأنوار وزوال عصر الأحلام الموعودة أمام شبح الإنسان المعاصر.

توجد نقطة أخرى على قدر من الأهمية نودُ التنويهَ بها في هذا المجال ألا وهي علاقة العلم بالأخلاق وما إذا كان العلم حيادياً في مساره التقدمي بمعنى لا يهمه الالتفات إلى السؤال الأخلاقي رغم أهميته وضرورته حتى لا يحيْدَ عن الغاية التي رُسِمَتْ له، وربما هذا ما جعل الكثيرون ينظرون إلى العلم على أنه في ذاته خير في حين كان يخفي وراءه الكثير من مظاهر التدمير والسيطرة.

لنكون أمام نموذجين تجاه العلم، النموذج الإرشادي القديم القائم على فكرة التسيّدْ على الطبيعة والسيطرة عليها، ومن ثمةَ تكون كل منتجاته وابداعاته موجهةً نحو هذه الغاية وبين النموذج الإرشادي الجديد الداعي إلى العمل واحترام الطبيعة والتعاون معها بدلاً من تدميرها والسيطرة عليها، حيث ظهر في العقدين الماضيين تمييز علمي بين **الايكولوجيا العميقة والايكولوجيا الضحلة**، ففي الأخيرة يوضع البشر فوق الطبيعة أو خارجها بمعنى السيطرة عليها، أما في **الايكولوجيا العميقة** فالبشر جزء حقيقي من الطبيعة(اريك فروم، 2003، صفحة 16)، خصوصا أمام الأخطار المحدقة بها من جميع جوانبها.

4-مشكلة فلسفة الاخلاق: إن القارئ بعمق للثقافة **الغربية** في القرون الماضية سيكتشف من دون شك بروز العديد من السمات المميْزةِ لها، والتي من بينها سيادة روح الفخر والتفاؤل، افتخارٌ بالعقل وتفاؤل بمنجزاته الكبرى التي حاولت بجدية تحقيق حلم الإنسان في السيطرة على الطبيعة والعيش بسعادة التي لطالما كانت البنت المدللة للفلاسفة في سعيهم الدؤوب لبلوغها، كيف لا وهو الذي تمكنَ من استغلال كل الامكانيات المادية في خدمة الإنسان وتطويعها لصالحه وفائدته، فحققَ بذلك نتائج كانت بالأمس القريب فقط من قبيلِ حكايات **الخيال العلمي**، والتي أصبحتْ اليوم حقائق واقعية مترجمة في العديد من الأعمال التي قام بها الإنسان الغربي مند **الثورة الصناعية الأولى** وحتى **الثورة الصناعية الرابعة** التي نعيشُ على أعقابها اليوم، هذا على الصعيد المادي والعلمي التقني الذي حصد الإنسان ثماره في القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين لكنه في الجهة المقابلة مازال يعيش اغتراباً عن وجوده وحياته، يعيش لحظات القلق والخوف فكلما ازداد سيطرت على الطبيعة ازداد بعدا وانفصالا عن واقعه وعالمه الوجودي بل الأدهى من ذلك كله، أصبح عبداً للألة والتقنية التي أصبحت تقوم بالعديد من الوظائف بدلاً عنه، وفي هذا غيابٌ كليٌ لمعنى الحياة الإنسانية في عالم التقدم العلمي الرهيب يقول **فروم:** " **فبينما أصبح سيد**

الطبيعة غدا عبد الألة التي بنتها يداه، وهو بكل معرفته عن المادة جاهل فيما يتصل بأهم مسائل الوجود الإنساني وأكثرها أساسية: من هو الإنسان؟ وكيف ينبغي أن يعيش؟ وكيف يمكن إطلاق الطاقات الهائلة فيه واستخدامها بطريقة منتجة(اريك فروم، 2003، صفحة 16) فقد أصبح مصطلح الأزمة المرادفْ للوضع الإنساني في **القرن العشرين** على وجه الخصوص نتيجة المخاوف الكبرى التي أصبح يعيشها **الإنسان المعاصر**.

5- الأزمة الإنسانية المعاصرة وأمال التنوير، هل تحققتْ نبوءات التنوير في الفضاء الغربي المعاصر: يُقِرُ **فروم** بفشل أمال التنوير في التحقق كونها لم تستطع أن تحقق للإنسان الغربي طموحاته الكبرى وهي العيش بسعادة، فالواقع يكشفُ العديد من التناقضات المتراكمة مند عصر الأنوار، فالعقل الذي ادعى مقدرته على التشريع في كل المسائل الإنسانية وقف عاجزاً ، ومن ثمة تزعزع الثقة في العقل ذاته بعد أن تم التشكيك في مسلمات الكنيسة ومبادئها المجحفة " **وخلق الشك المتزايد في استقلال الإنسان وعقله حالة التشوش الأخلاقي الذي يترك فيه الإنسان من دون إرشاد سواء من الوحي أو من العقل**"(اريك فروم، 2003، صفحة 29)وهنا يعاد طرح سؤال مصدر المعايير الأخلاقية التي يجب اللجوء إليها في الحكم على فعل أخلاقي معين خصوصا أمام تعدد المعايير واختلافها، ليعاد البحث في مصدر العقل من جديد كمعيار للحكم الأخلاقي.

يرى **فروم** أن المعايير الأخلاقية يمكن أن يشكلها عقل الإنسان باعتباره يملك القدرة على الحكم على الأشياء وتصنيفها إما كونها صحيحة أو خاطئة، خيّرةٌ أو شريرة من خلال الرجوع إلى طبيعة الإنسان لأنها وحدها من تكشف عن طبيعة القيم الأخلاقية وغيرها من القيم، وهنا يحضر علم النفس في تشخيص ماهية الفعل الأخلاقي بالنسبة لبقية الأفعال الأخرى، وعندما نقول بالعقل كمعيار للحكم الأخلاقي فهذا لا يعني نفي دور المصادر الأخرى في الكشف عن طبيعة المعايير الأخلاقية، ولكن **فروم** يلحُ على دور الإنسان ذاته في تجلي ووضوح الأفعال الأخلاقية، **يقول** " **إذا كانت فلسفة الأخلاق الإنسانية قائمة على معرفة طبيعة الإنسان، فقد كان من شأن علم النفس الحديث، ولا سيما التحليل النفسي أن يكون دافعاً من أقوى الدوافع إلى تطور فلسفة الأخلاق الإنسانية**(اريك فروم، 2003، صفحة 40) فهو يسميها أخلاق إنسانية بمعنى البحث في الإنسان من زوايا أخرى تختلف عن الأطروحات الفلسفية السابقة كونها تحاول الربط بين أبعاد الإنسان الأخلاقية من جهة والسيكولوجية من جهة ثانية، ومن ثمة ضرورة المقارنة بين تطور **علم النفس** في فهمه للحياة النفسية التي قطع فيها شوطا كبيرا وبين تعبيره عن المعايير الأخلاقية وكأنه قد فصل بينهما، وهي الفكرة التي يرفضها **فروم** ويعيبهاَ على **التحليل النفسي** " **إن التحليل النفسي في محاولته إقامة علم النفس بوصفه علما طبيعيا قد ارتكب الخطأ في فصل علم النفس عن مشكلات الفلسفة وفلسفة الأخلاق، فقد تجاهل أن الشخصية البشرية لا يمكن فهمها إلا إذا نظرنا إلى الإنسان في كليته التي تتضمن حاجته في العثور على جواب للسؤال عن معنى وجوده، وإلى اكتشاف المعايير التي يجب أن يعيش وفقاً لها**" (اريك فروم، 2003، صفحة 40)وعليه يكون التحليل النفسي قدْ وقعَ في تناقض برفضهِ الاهتمام بالجانب الأخلاقي في الإنسان وتركيزه فقط على الجانب النفسي أو الطبيعي، وبالتالي لا

يمكن فهم الجانب الانفعالي والاضطرابات العقلية والعصبية للشخص في منأى عن جانبها القيمي والأخلاقي، فلا يمكن فهم الإنسان إلا في كليته، جانبهُ الروحي في مقابل جانبه الطبيعي دون إهمال أيٍّ منهما " **بل في العودة إلى التراث العظيم لفلسفة الأخلاق الإنسانية التي نظرت إلى الإنسان في كليته الجسدية- الروحية مؤمنة أن غاية الإنسان هي أن يكون ذاته وأن الشرط لبلوغ هذه الغاية هو أن يكون الإنسان من أجل ذاته**"(اريك فروم، 2003، صفحة 41) فرؤية **فروم** المحلل النفساني للقيم الأخلاقية نابعةٌ من ضرورة قيام فلسفة أخلاقية إنسانية تراعي جميع أبعاد الإنسان الإنسانية وقيمهِ العقلية والانفعالية.

6- فلسفة الأخلاق الإنسانية العلم التطبيقي لفن العيش قراءة في تجليّات الفلسفة الأخلاقية الفرومية: لماذا فلسفة الأخلاق الإنسانية هي البديل الذي يقترحهُ فروم كنموذج للعيش المشترك وكفن للعيش؟ إن الأصالة **الفرومية** في معالجة المشكلات الأخلاقية نابعةٌ من فهمه العميق لجميع مجرياتِ الواقع الإنساني الغربي المعاصر وخصوصية المجتمع الصناعي وما بعده، هذه الخصوصية التي نتجَ عنها تغيّرٌ كبير في الكثير من المفاهيم المرادفة للذات الإنسانية وفهمها فهماً حقيقياً، **فكيف يمكن قراءة نظرية فروم الأخلاقية في ضوء التحولات الكبرى التي يعرفها العالم؟**

يميّزُ **فروم** في حديثه عن **مشكلة الأخلاق بين الأخلاق التسلطية من جهة والأخلاق الإنسانية من جهة أخرى،** لذلك يسعى إلى ضرورة البحث في التمييز بينهما كي يتسنى له الوقوف على ملامح الأخلاق الإنسانية الأصيلة التي يجب أن تتجسد في كل الأفعال الإنسانية، ففلسفة **الأخلاق التسلطية** تنص على سلطة ما هو خير للإنسان وتضع القوانين ومعايير السلوك، أما في فلسفة **الأخلاق الإنسانية** فإنَّ الإنسان نفسه هو مانح المعيار وموضوع المعايير على السواء فهو مصدرها الرسمي أو عملها التنظيمي وهو مادة موضوعها(اريك فروم، 2003، صفحة 41).

وهنا لابد من فهم المراد **بالتسلط** أو **التسلطية** في مجال **الأخلاق** حتى يفهم الغرض الأساسي من توظيف **فروم** لهذا المفهوم، ومن ثمة الوصول إلى تحديد مميزاتْ الفلسفة الأخلاقية الإنسانية التي أسسها **فروم** ودافع عنها ضد التيارات النسبوية والنفعية وغيّرهاَ.

6-1: فلسفة الأخلاق التسلطية وفلسفة الأخلاق الإنسانية: يميّزُ **فروم** في فلسفته الأخلاقية بين ما يسميه بفلسفة **الأخلاق التسلطية** التي تقوم على إرجاع الحكم الأخلاقي دائماً إلى سلطة خارجة عن الذات يجب العمل بأوامرها وعدم مخالفتها لأن في ذلك إثم كبيرْ، من خلال مقياسيين هما: المقياس الشكلي حيث تنكر الأخلاق التسلطية قدرة الإنسان على معرفة الخير والشر، ليكون مانح **المعيار** دائما هو سلطة تتجاوز الفرد أيٌّ لا تتأسس على العقل والمعرفة بل على مهابة **السلطة**، أما المقياس المادي فيتمثل في إجابة **فلسفة الأخلاق التسلطية** على سؤال ما هو جيْد أو رديء على أساس مصالح السلطة(اريك فروم، 2003، صفحة 48)، مشيراً إلى العديد من الأمثلة التي

توضح هذه الأخلاق من قبيل قيام الطفل بسلوك ما تجنباً لعقاب الأبوين أو وصف المدرس تلميذ معيّنْ بأنه جيدْ نتيجة عدم ازعاجه في تقديم الدرس وغيرها من الأدلة، ومن ثمة تكون **الأخلاق التسلطية** قائمة على أن الطاعة هي الفضيلة الكبرى، وأن التمرد هو الإثم الأكبر، **فالعصيان** إثم لا يغتفرْ في فلسفة **الأخلاق التسلطية**.

أما الأخلاق الإنسانية فهي مجموعة القيّم والمعايير التي تتمركز حول الإنسان باعتبارهِ أساس الفعل الأخلاقي، فمن الناحية الشكلية يكون الإنسان وحده الذي يحدد مقياس الفضيلة أو الإثم وليس السلطة التي تتجاوزه، ومن الناحية المادية تقوم على أن الخير هو ما هو خير للإنسان، والشر ما هو ضار له، فالمقياس الوحيد للقيمة الأخلاقية هو حسن حال الإنسان(اريك فروم، 2003، صفحة 48.) وبالتالي تكون الفلسفة الأخلاقية الإنسانية هي تلك الفلسفة المعبِرة حقيقةً عن قيمة الإنسان ووجوده، بمعنى هي من تعطي للشخص معنى وجوده في الحياة دون أن تكون منغلقة على الذات فقط بل فلسفة منفتحة على الوجود الإنساني ككل.

يقول فروم" **إن المبدأ القائل أن الخير هو ما هو خير للإنسان لا يتضمن أن طبيعة الإنسان هي أن الأنانية أو الانعزال هما خير له هكذا...فإن إحدى الصفات المميّزة للطبيعة الإنسانية هي أن الإنسان لا يعثر على إنجازه وسعادته إلا في اتصاله وتضامنه مع إخوته البشر**"(اريك فروم، 2003، صفحة 49) فقد أراد **فروم** أن يتجنبَ الحديث عن أفكار لا وجود لها في الواقع الإنساني أي غيّرْ قابلة للتحقيق تبقى ذات طبيعة متعالية أو مثالية هذه الأفكار يرفضها **فروم** وهي الميِّزة الجوهرية في مشروعه الفلسفي، الانطلاق من الواقع وجعل كل المفاهيم التي تُعَبِرُ عن الإنسان موجودة فعلياً فيه بما فيها الأخلاق والحرية والحب وغيرها من **القيم الإنسانية**، فأنْ يحب الإنسان غيره ليست فكرة متعالية على الواقع بل فكرة متصلة بوجوده وكينونته، إنها المقدرة التي يصل بها نفسه بالعالم ويجعلهُ عالمهُ الحقيقيْ.

6-2: الأخلاق بين الذاتية والموضوعية: يرفض **فروم** التصور الذيْ قدمهُ أنصار مبدأ اللذة في الأخلاق واصفا إياه بأنه غيّرُ قادرٍ على الوصول إلى نتائج موضوعية صحيحة تنطبق على الحكم الأخلاقي فليس كل ما يحقق لذة يكون خيرا بالضرورة ومن ثمة وجود تناقض بين الفعل الخيّرْ من جهة والحكم عليه من جهة أخرى بين الاشخاص، هنا لا نريد الخوض في تفاصيل فلسفة الأخلاق اللذوية عند **ابيقور** وغيرهم من الفلاسفة لأن ما يهمنا في هذا الصدد هو البحث عن التصور الذي قدمه **فروم** للخروج من هذه المشكلة.

ومن أجل الوصول إلى نتائج موضوعية صحيحة عن المعايير الأخلاقية لا بد من معرفة طبيعة كل منهما أولاً وعلاقتهما بالنسبة للإنسان ثانيا، لأننَا بصدد الحديث عن تجارب حياتية بلغة **فروم** فن العيش بما يحملهُ من تداخلٍ وتعقيدٍ شديدْ لأنهُ يتضمنُ الذات والموضوع معاً، الأمر الذيٌ يجعل من مهمة البحث عن توصيف حقيقيٍ لمعاني الفلسفة الأخلاقية ليس بالأمر الهيّنْ بل من الأمور الصعبة التي تحتاج إلى الوقوف عند طبيعة المفاهيم أولا، " **ففلسفة الأخلاق الإنسانية التي عندها أن "الجيد" مرادف للجيدْ عند الإنسان، والسيئ مرادف للسيئ بالنسبة إلى**

الإنسان تقترح لكي نعرف ما هو جيد للإنسان علينا أن نمتلك المعرفة بطبيعته، وفلسفة الأخلاق الإنسانية هي العلم التطبيقي لفن العيش القائم على علم الإنسان النظري"(اريك فروم، 2003، صفحة 52) فمعرفة الفعل الجيِّدْ من الأخر السيئ مرتبطةٌ في الوقت ذاته بطبيعة الإنسان لأنه وحده من يملك القدرة على التمييزِ بينهما من جهة ومن ثمة القدرة على الاختيار بين الأفعال، لذلك تكون الفلسفة الصحيحة هي تلك التي تدافع عن حقها في الوجود كتجربة معيشة وليس فقط في جانبها النظري، " **فالدافع إلى العيْش متأصلٌ في كل كائن حي ولا يستطيع الإنسان منعَ نفسهِ من إرادة الحياة بقطعِ النظر عن مسألة ما يرغب في أنْ يعتقد حولها**"(اريك فروم، 2003، صفحة 52) إرادة الحياة عند **فروم** تختلف عنها في تعبير **شوبنهاور** باعتبارهِ الرائدْ في التأصيل لدور الإرادة في الحياة بوصفها تمثلاً للعالم، وإنما إرادة الحياة النابعة من صميم تجربة الإنسان في العيش وامتلاك الحرية الفعلية التي تمكنهُ من اثباتِ ذاته في عالم الوجود، وربما تقتربُ من فهم **نيتشه** للإرادة، ولكن من زاوية أخرى كون **النتشوية** قد قلبتْ كل القيّمِ السائدة في عصرها وما قبلهُ مؤسسةً مفهومٌ جديدً لها يتلاءم مع إرادة القوة.

قائمة المصادر والمراجع:

1- اريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، 1982.

2- اريك فروم، كينونة الإنسان، ترجمة حميد لشهب، نداكوم للطباعة والنشر،2003.

3- حجاج أبو جبر مقدمة حول زيجمونتباومان، **المراقبة السائلة**، ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى بيروت، 2017.